

## القيم الأخلاقية في الشعر الشعبي الجزائري الشرف و العفة و المرأة في شعر عبد الرحمان مجدوب

د/ بكوش المولودة قشيوش نصيرة

جامعة تلمسان

### الملخص:

من القيم الأخلاقية التي تتجلى في شعر عبد الرحمان مجدوب: العفة و الشرف عند المرأة و قد وضعت الذاكرة الشعبية ميزانا لغريزة النساء، و قد صار أول مطلب يشترط توفره في زوجة المستقبل هو العفة لا بمعناها الخلقي و إنما بمعناها الجنسي، و قد اعتبر شرف المرأة احد المقاييس الأساسية لاكتمال جمالها و تحقيقها لنموذج المرأة المشتهاة و المبتغاة.

### الكلمات المفتاحية:

الشرف - المرأة - الغريزة الجنسية - العذرية - الممارسات الشعبية

يترجم الشعر الشعبي جملة من الأفكار و المعتقدات الخاصة بالنظرة للمرأة، بحيث صورها في طبيعتها الشيطانية، و اقلع عنها ثوب التقوى و جعلها مصدر الموبقات و الفواحش. و إن تشكيل صورتها في كائن شيطاني متبرج باعث على القلق و الخوف، قد يطرح الأسئلة التالية: لماذا هذه النظرة الدونية للمرأة؟ هل حقا إن المرأة لا تؤمن؟ و هل

صحيح أنها لا تستطيع أن تتحكم في نفسها و عواطفها؟ و لماذا فكرة الشرف ترتبط بالجسد الأنثوي دون الجسد الذكري؟ و بصورة اشمل من أين استمدت هذه المعتقدات جذورها؟

إذا تمنعنا نصوص عبد الرحمان مجدوب و حاولنا استنطاقها نجدها تجعل المرأة في مكانة دنيئة و تخط من قيمتها و شانها و تجعلها مثالا للخيانة و الغدر و الفسق.

و قد يتجلى هذا في قوله:

الحمامة طارت و علالت      و وقفت على عود راشي

كلشي النسا واعرات      غير اللي ما تقد على شي

و يقول ايضا:

احنا النسا عرش تفاح      من شدنا نجيو فيده

اذا غابوا علينا اثنين      ما زال الثالث نزيده

بعيني شفت لفقيرة تصلي      و سبحتها فوق الحصيرة

هي تخدع فرجلها      و هو يقول مرات فقيرة

بعت النسا بهتين      من بهتهم جيت هارب

يتحزموا باللفاع      و يتحللوا بالعقارب<sup>(92)</sup>.

ونخرج مما سبق ان صورة المرأة في الشعر الشعبي قد اخدت أبعادا كثيرة تتلاقى في معظمها حول الطابع الشيطاني مما يوحي لنا بان المرأة غريبة الأطوار، فهي في ضوء الذاكرة الشعبية قد تتحول بسهولة من ملك إلى شيطان في لحظة، فهي في تصرفاتها تنتقل -تحت تأثير الغريزة الجنسية- انتقال النحلة من زهرة إلى أخرى.

كما أن هذه النصوص تنظر إلى المرأة لا بوصفها إنسانا مثلها مثل الرجل و إنما هي تنظر إليها بوصفها أنثى، مما جعلها تبقى (في عين الرجل ) مصدر الموبقات و الفواحش. مما جعلها تحذر من الاغترار بها و تحث على إقصائها و الحذر منها.

و قد وردت أحاديث كثيرة في هذا الشأن في كتاب احمد التجاني و لعل من أهمها:

"ما تركت فتنة اضر على الرجال من النساء"(93).

"إياكم و الدخول على النساء"(94).

"المرأة من حبائل الشيطان." (95).

كما تزخر الذاكرة الشعبية بأمثال شتى منها:

"المرأ جنة و باطنها جهنم".

"المرأ نار الا غفلت تحرقك".

"المرأ لفعى".

إن مضامين هذه الأقوال تدعو لآخذ الحذر و الحيلة أثناء التعامل مع المرأة، و لعلها عبارات سلطوية استبدادية قاسية، لكنها للأسف لاقت قبولا كبيرا و انتشارا واسعا فتبنتها الثقافة الشعبية و رسختها في ذاكرة الشعوب.

إن الكثير من هذه الأفكار و المفاهيم لا زالت تسيطر على عقلية الشعوب و هي عبارة عن ترسبات و تراكمات تاريخية طويلة تمتد من العصور القبل إسلامية (96).

و لعل قصة ادم و حواء و ربط حواء بالخطيئة في الديانة النصرانية و اليهودية كان لها الأثر الواضح في توارث مثل هذه الاعتقادات رغم أن النص القرآني جاء ليصحح مفهوم الخطيئة و ذكر أن الخطيئة لم تكن من حواء وحدها بل من ادم و حواء و يتجلى ذلك في قوله تعالى:

"فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه" البقرة: الآية 36.

كما ان ظاهرة واد البنات التي كانت في المجتمعات العربية قبل الإسلام قد رسخت هذا الاعتقاد "فالجسد الأنثوي في الثقافة السائدة يجلب بفتنه الخوف و العار و ذلك لارتباطه بمضمون الشرف. فميلاد البنت اعتبر في مجتمعات كثيرة مبعث قلق و توتر و رفض أحيانا (97).

و انطلاقا من تلك الاعتقادات و التصورات الخاصة بالمرأة جعلت الذاكرة الشعبية تصنع ميزانا لغربة النساء، فمنهن (التي تتحكم في غرائزها، و منهن غير الصالحة و هي التي تنساق وراء غرائزها.

كما أصبح هذا الحكم مع مرور الوقت شبه قاعدة يرجع إليها قبل مشروع الزواج، بحيث صار اول مطلب يشترط توفره في زوجة المستقبل هو العفة لا بمعناها الخلقي و إنما بمعناها الجنسي ،أي الفتاة التي تستطيع حبس نفسها داخل بيت أبيها قبل الزواج، فلا تسمح لأي كان أن يبصرها أو أن تتكلم معه لان أي إجراء من هذه الإجراءات يفسر على انه بداية التبرج و من ثم عدم صلاحية هذه المرأة للزواج.

و نظرا لحساسية هذا الموضوع احتفظ الشعر الشعبي بنصوص تحت على حسن الاختيار عند الإقدام على الزواج فيقول عبد الرحمان المجدوب:

لا يعجبك زين الطفلة حتى تشوف لفاعيل

و لا يغرك نوار الدفلى فالواد داير الضلايل (98).

هذا الكلام كثيرا ما رددته الألسنة الشعبية و أعدته منهاجا تسير عليه لما فيه من الأهمية و المنفعة و نجد فيه مقارنة بين جمال المرأة و نوار الدفلى انطلاقا مما ترمز إليه الدفلى من جمال الورد و مرارة الطعم.

فقياسا على ذلك يكون جمال المرأة مثله مثل الورد في حين قد يكون خلقها مرا كمرارة الدفلى، مما يعني أن للخاطب مطالب عند الإقدام على عملية الخطبة بمراعاة شرطين أساسيين:

1- أن لا يكتفي بالجمال الظاهر (نوار الدفلى).

2- أن يراعي ما هو خلف هذا النوار من مرارة الطعم (فقدان الخلق)

و يعني هذا أن الجمال -وحده- لا يكفي معيارا كافيا لتقويم المخطوبة و إنما تنقصه اللوازم الخلقية كالامثال و الانضباط... (99).

لقد ربط المجتمع الجزائري و غيره من المجتمعات الأخرى اختيار الفتاة للزواج بالعفة والطهارة، و تمثلت المعايير الأخلاقية خاصة في عذرية العروس.

إذن اعتبرت بكاراة المرأة احد المقاييس الأساسية لاكتمال جمالها و تحقيقها لنموذج المرأة المشتهاة و المبتغاة.

فجسد المرأة يكتسي أهمية كبرى لا مثيل لها و المساس بهذا الجسد هو المساس بتأبؤ الأسرة أو القبيلة و هو انتهاك عقوبته يمكن أن تكون القتل غسلا للعار" (100).

طبقا للمثل القائل: "ما يمحي العار غير النار" (101).

و نظرا لمكانة هذا المقياس (البكاراة) في المجتمع العربي عامة و الجزائري خاصة، فقد يذهب سلطان التقاليد إلى حد أن الأم تقتل ابنتها إذا اكتشفت أنها غير عذراء، كما قد يهاجر الأخ أو الأب بلده و داره خشية من كلام الناس، لان هذا كما تقول فوزية دياب: "يسود وجوه أهلها، و يسود عمائمهم، و يجعلهم مضغة في أفواه الناس سنين طويلة." (102).

و تتجلى قيمة هذا القياس أيضا في قول هافلوك اليس: "يبدو أن المرأة اختصت بعشاء البكاراة ليكون رمزا أكثر منه عضوا جنسيا، إذ يلعب دورا كبيرا من الناحيتين الاجتماعية و الأخلاقية" (103).

كما يشكل التماس غشاء مهبلي بكر بالنسبة للبنات ليلة الزفاف ضماناً لحسن أخلاقها و أحياناً لا مفر من ذلك، لبقائها. " (104).

فالعذرية علامة على العفة و الشرف، و ضماناً لبقاء و استمرار الحياة الزوجية، لذلك اهتمت العائلة بالحفاظ عليها بوسائل متعددة كمنع الاختلاط، و ذهبت بعض العائلات إلى ممارسات أخرى كظاهرة "التصفيح" (105).

1- التصفيح. و هي ممارسة "سحرية" لعلها ما زالت قائمة في بعض الأوساط الاجتماعية غايتها صيانة جسد الطفلة مشروع المرأة من أي اختراق و حجب عن الآخر (الرجل) (106).

و قد اختلفت وسائل و طرق هذه الممارسة حسب المناطق. و في منطقة تلمسان جرت العادة أن تربط الأم ابنتها جنسياً، عند امرأة تحترف الربيط.

تبدأ العملية بتجريد الفتاة من ثيابها، ثم تضربها على أردافها، و تأمرها أن تمر سبع مرات فوق المنسج (تدخل ثم تخرج منه سبع مرات) ، و تردد المرأة المقولة التالية: "بنتي حيط و ولد الناس حيط".

و بهذه الطريقة تصبح عذرية الفتاة محاطة بمحرم سحري يستحيل اغتصابها.

و من وسائل المحافظة على الشرف أيضاً و خاصة في المجتمع المصري ممارسة الخفض و منع المتعة.

2 - الخفض: في إطار الخوف من حياة المرأة الجنسية، كانت تقام ممارسات ذهبت إليها عدة شعوب ليظل جسد المرأة جاهلا للذة الجنسية، وهو نوع من التلقيح ضد مخاطر الجنسية، لكي لا تحدث الفتنة التي تهدد النظام الاجتماعي القائم، تمثلت هذه الممارسة في عملية الخفض، وهي كالختان للغلام (107). و تتمثل في بتر البظر أو أجزاء أخرى من العضو الجنسي للمرأة أو بتره كلياً على الطريقة المسماة بالطريقة الفرعونية.

هذه الممارسة وجدت قديماً في التاريخ و تحدث عنها هيرودوت في القرن الخامس قبل الميلاد، كممارسة سادت عند المصريين و الفينيقيين و الأثيوبيين... (108).

إن ممارسة الخفض إلى جانب عملية التصفيح غرضها الاحتياط و التحرز و الخوف من عقدة الذنب المتمثلة في الجنس الذي نبذه يطلق نوعاً من الهوس و الوسواس لدى أفراد المجتمع، لذلك وظف العرف هذه الممارسات كحماية و كسلاح للمقاومة و للتخفيف من شدة التوتر و القلق الذي يخيم على الذات، فاستخدم جميع الوسائل للمحافظة على العفة و الشرف.

إلا أن ما تجب الإشارة إليه هو أن الذاكرة الشعبية اهتمت كثيراً بالغريزة عند المرأة، و تكاد تهمل الغريزة عند الرجل (109)، فقوة الغريزة ليست قاصرة على المرأة دون الرجل، و إنما العرف الشعبي تجاهل دور غريزة الجنس عند الرجل، في حين وظف كل وسائل التشغيل في التركيز على مكانة الغريزة الجنسية عند المرأة، مما قد يفهم أن المرأة عبارة عن قوى غريزية متنقلة مثلها مثل الكرة المغناطيسية التي تجذب إليها كل من حال حولها.



و يواصل عبد الرحمان مجدوب حديثه عن المرأة و يصورها دائما في شكلها الشيطاني  
حيث جعلها مصدرا للفتنة و الغدر و الحيلة و اللؤم فيقول:

سوق النسا سوق مطيار      يا داخل رد بالك

يوربولك من الريح قنطار      و الدرك راس مالك (110)

و يقول أيضا:

نوصيك يا حارث القديم (111)      بالك من دخانها لا يعميك

لا تدي شي المرأة المغفونة (112)      تتعاون هي و الزمان عليك (113)

كيد النسا كيدين      و من كيدهم يا حزوني

راكبة على ظهر السبع      و تقول الحد ياكلوني (114)

و معنى أبيات عبد الرحمان مجدوب أن المرأة تتحيز للانتقام فلا تجهر به جهر  
الرجل، مما يصعب على هذا الأخير أن يتجنب مكرها، فهي لضعفها تلجأ إلى الحيلة أكثر مما  
تلجأ إلى المواجهة المباشرة في الانتقام (115)، ففوة المرأة تكون في طريق الخدعة التي تعتمد  
عليها عند شروعها في الدفاع عن نفسها.

و من المعروف أن سلاح الخدعة لا يكون عادة سلاح القوي المعتد به نفسه، و إنما  
يكون سلاح الضعيف، و نظرا إلى أن المرأة تشعر في مجتمعنا بالاضطهاد فإنها لا تجد وسيلة  
أخرى تدافع بها عن نفسها سوى الخديعة و المكر أمام غطرسة الرجل، و هذا التصرف

يكون-فيما يرى العقاد-:"إلى طبيعة في الأنوثة تلتزمها في كل مجتمع، و لا تفرضه عليها الآداب و الشرائع، و لا يفارقها باختيارها أو بغير اختيارها... و من أصول هذا الرياء في تكوين الأنثى أنها مجبولة على التناقض بين شعورها لغريزة حب البقاء، و شعورها بغريزتها النوعية... و إنها مجبولة كذلك على التناقض بين شعورها بالشخصية الفردية و شعورها بالحب و العلاقة الزوجية." (116)

و نخلص مما سبق ان الأحكام التي جاءت في الشعر الشعبي، فإنها لا تخلو من المبالغة و الاستبداد بالرأي و الغلو في إساءة الظن بالمرأة، ولكنها تعكس نوعا من الاعتقادات الموجودة عند بعض أفراد المجتمع الجزائري. الا ان عبد الرحمان مجدوب تارة يهجو المرأة و ينتقدها و تارة يمدحها و قد نجد له نصوصا أخرى يستسلم فيها للمرأة و يعلن حبه لها قائلا:

الطير الطير ما ظنيته يطير من بعد ما والف

خلى قفصي و عمر قفص الغير رماني في بحور خلاني تالف(117)

و يقول ايضا:

حبيبي ان غضب ما صبت له طب بعد المحبة جفاني

نجيب القهوة و نصب و نحدثه بالمعاني(118)

معنى هذا أن المرأة خير أليف و أنيس للرجل، فمعها تطيب الحياة و تسعد.

فعبد الرحمان مجدوب بعد أن انتقد المرأة و أشبعها هجاءا لاذعا ،عاد فأدرك ما تحمله من صفات حسنة كالرقة و العطف و الحنان و الحب.لان كل مجتمع يشتمل على نوعين من النساء،فمنهن الشريفات العفيفات،و منهن الخائئات.و قد يرجع الفرق بينهما إلى طبيعة و تربية كل واحدة.فإذا أحسن الآباء رعاية و تربية بناتهم، وجعلوهن تحت رعايتهم و وصايتهم فلا شك أنهن ستكون أمهات عفيفات شريفات طاهرات.

و خلاصة من كل ما سبق نقول إن ربط المجتمع جسد المرأة بالعفة دون جسد الرجل قد يجعله يرتكب إثما في حقها لان العقوبة يجب أن تطبق على كل من الذكر و الأنثى فالمقاييس الأخلاقية التي يضعها المجتمع لا بد أن تسري على جميع أفراد بصرف النظر عن الجنس و اللون أو الطبقة الاجتماعية.و إذا كان المجتمع يؤمن بالعفة في الجنس كقيمة خلقية فلا بد أن تسري هذه القيمة على جميع أفراد،أما أن تسري على جنس دون الآخر،و على طبقة دون الأخرى،فهذا دليل على أن هذه العفة ليست قيمة أخلاقية و إنما هي قانون فرضه النظام الاجتماعي القائم. (119)

و نظرا لمكانة هذا المقياس ودوره في الحفاظ على عزة و كرامة المجتمع، حاول العرف أن ينظم العلاقة الجنسية في إطار النكاح الذي يضفي عليها الشرعية و القدسية، و يبارك اتحاد الرجل و المرأة، و يضمن الديمومة و الاستمرارية.

### قائمة المصادر و المراجع:

- 1-القران الكريم.
- 2- ابن منظور لسان العرب- الجزء الخامس.
- 3- احمد التيجاني -تحفة العروس و متعة النفوس-تحقيق جلال عطية-لندن-1992.
- 4- صوفية السحيري بن حنيرة -الجسد و المجتمع-دراسة انتربولوجية لبعض الاعتقادات و التصورات حول الجسد-دار محمد علي للنشر-تونس-الطبعة الأولى-2008.
- 5- عباس محمود العقاد-المجموعة الكاملة:الإسلاميات-المجلد الثامن-دار الكتاب اللبناني-بيروت-ط1-1975-ص24,و للتوسع أيضا انظر:قاسم أمين-تحرير المرأة.
- 6- فوزية دياب-القيم و العادات الاجتماعية-دار النهضة للطباعة و النشر-بيروت-1980.
- 7- قاسم أمين:تحرير المرأة-موفم للنشر-الجزائر-1990.
- 8- نور الدين عبد القادر -القول المأثور من كلام الشيخ عبد الرحمان مجدوب-المطبعة الثعالبية بالجزائر د.ت.
- 9- نور الدين طوالي-الدين و الطقوس و التغيرات-تر:وجيه البعيني-منشورات عويدات-بيروت-باريس-ديوان المطبوعات الجامعية -الجزائر-ط1-1988.
- 10- نور الدين طوالي- إشكالية المقدس-ديوان المطبوعات الجامعية-الجزائر.
- 11- هافلوك اليس-الشذوذ الجنسي-منشورات دار محبو للنشر و الطباعة-بيروت.
- 12- Sigmund freud-introduction à la psyanalyse traduit de l'allemand par s.jankeleritch-1994.
- نور الدين عبد القادر -القول المأثور من كلام الشيخ عبد الرحمان مجدوب-المطبعة الثعالبية بالجزائر د.ت ص28.
- (<sup>1</sup>)احمد التيجاني -تحفة العروس و متعة النفوس-تحقيق جلال عطية-لندن-1992-ص31.
- (<sup>1</sup>)احمد التيجاني- المرجع السابق -ص 31.
- (<sup>1</sup>)المرجع نفسه-ص32.

(<sup>1</sup>) صوفية السحيري بن حنيرة -الجسد و المجتمع-دراسة أنتروبولوجية لبعض الاعتقادات و التصورات حول الجسد-دار محمد علي للنشر-تونس-الطبعة الأولى-2008-ص43 .

(<sup>1</sup>)-المرجع نفسه-ص 44.

(<sup>1</sup>) نور الدين عبد القادر -القول المأثور من كلام عبد الرحمان مجدوب- -ص 19.

(<sup>1</sup>) للبتوسع انظر قاسم أمين: تحرير المرأة-موقف للنشر-الجزائر-1990-ص 33.

(<sup>1</sup>).صوفية السحيري بن حنيرة-المرجع السابق-ص 56

(<sup>1</sup>)مثل يتردد في منطقة تلمسان.

(<sup>1</sup>)فوزية دياب-القيم و العادات الاجتماعية-دار النهضة للطباعة و النشر-بيروت-1980-ص301.

(<sup>1</sup>)هافلوك اليس-الشدود الجنسي-منشورات دار محبو للنشر و الطباعة-بيروت-ص187.

(<sup>1</sup>)نور الدين طولالي-الدين و الطقوس و التغيرات-تر:وجيه البعيني-منشورات عويدات-بيروت-باريس-

ديوان المطبوعات الجامعية -الجزائر-ط1-1988-ص49.

(<sup>1</sup>)صوفية السحيري بن حنيرة-المرجع السابق-ص55.

(<sup>1</sup>)المرجع نفسه-ص55.

(<sup>1</sup>)ابن منظور لسان العرب- الجزء الخامس-ص112.

(1)pierre leuciette,benoite groult-le viol des viols (صوفية السحيري بن حنيرة-المرجع

السابق-ص61).

(<sup>1</sup>)للبتوسع أكثر انظر:

Sigmund freud-introduction à la psycanalyse traduit de l'allemand par s.jankeleritch-1994 p 283 /298.

(<sup>1</sup>)نور الدين عبد القادر-المرجع السابق-ص 13.

(<sup>1</sup>)القديم=الحلفاء.

(<sup>1</sup>)المعفونة=غير العفيفة.

(<sup>1</sup>)نور الدين عبد القادر-المرجع السابق-ص39.

(<sup>1</sup>)-المرجع نفسه-ص 29.

(<sup>1</sup>) نور الدين طوالي - إشكالية المقدس - ديوان المطبوعات الجامعية - الجزائر - ص 107.

(<sup>1</sup>) عباس محمود العقاد - المجموعة الكاملة: الإسلاميات - المجلد الثامن - دار الكتاب اللبناني - بيروت - ط 1 -

1975-ص 24, و للتوسع أيضا انظر: قاسم أمين - تحرير المرأة - ص 117-123.

(<sup>1</sup>) نور الدين عبد القادر - المرجع السابق - ص 75.

(<sup>1</sup>) المرجع نفسه - ص 44.

(<sup>1</sup>) صوفية السحيري بن حتيرة - المرجع السابق - ص 61.